أسباب نشأة علم الكلام

أولا: العوامل الخارجية

لقد أدت المواجهة الفكرية بين الإسلام وسائر الاديان الى نشأة علم الكلام وانبثقت عن هذه المواجهة موضوعات هذا العلم:

فقد لزم عن المواجهة بين اليهودية والإسلام موضوعات تتعلق بالتنزيه والتشبيه وبإمكان نسخ الشرائع ثم بعصمة الأنبياء. وظهرت بين المسيحية والإسلام موضوعات تتعلق بالكلمة أو الكلام الله وخلق القرآن وأبحاث متعلقة بصلة الذات بالصفات وأخرى متصلة بالجوهر والأعراض.

وظهرت الجوانب الميتافيزيقية المتعلقة بالأخلاق أو بالأحرى البحث في أصل الشر. فكان أن انبثق القول بالعدل ونظرية اللطف الإلهي والصلاح والأصلح لدى المعتزلة للرد على ديانات الفرس من زردشتية ومانوية ومزدكية. ودافع المسلمون عن النبوات وأنكروا التناسخ وأقروا المساواة وبحثوا في مصادر المعرفة ليواجهوا الصابئة والبراهمة والبوذية.

ولم يكن خلاف الإسلام مع الأديان الأخرى عقائديا متعلقا بالإلهيات فحسب وإنما شمل جوانب أخلاقية واجتماعية وأبحاثا متصلة بنظرية المعرفة والعلم الطبيعي.

ولم يكن صراعا جدليا يقف فيه المتكلم أو الحبر أو اللاهوتي أو الكاهن يتجادلان ويناقشان فحسب وإنما كان هناك تسلل وراء خطوط الخصم ومحاولة التأثير على اتباع كل فرقة وتبادل الأسلحة الفكرية أو بالأحرى التسلح بمنطق الخصم واستدلالاته للتفوق عليه فضلا حركات عن المنافقين - حيث يظهر الفرد الإسلام ويبطن عقيدة أبائه - التي أنتجت إسرائيليات وزندقة.

أضيف إلى ذلك كله الحياة اليومية المشتركة واللقاء الدائم تبين لماذا تسربت بعض معتقدات الأديان الأخرى إلى بعض فرق المسلمين. فبينما ينكر الإسلام التشبيه فبين المسلمين مشبهة ومجسمة وأغلبهم لا يشك في صحة إسلامهم. وبينما يرفض الإسلام قدم الكلمة أو أزلية المسيح اعتنق

الحنابلة القول بقدم القرآن كلام الله وهؤلاء بدورهم لا يتطرق الشك في إخلاصهم للإسلام، على أن فرقا أخرى تسللت إليها معتقدات كان لا بد أن عليها جمهور المسلمين كحركات الزنادقة أو القول بالتناسخ لأنها تتعارض صراحة مع أصول الإسلام من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولا يغفل أثر الترجمات الى العربية في وقت لاحق على اتساع الابحاث الكلامية وانتشارها بين المسلمين بما تحمل من إثارات تتعلق بالاعتقادات.

ثانيا: العوامل الداخلية

على إن عوامل داخلية - إلى جانب ما سبق ذكره من عوامل خارجية - قد أدت إلى نشأة الفرق الإسلامية وانبثاق بعض موضوعات علم الكلام.

١ - الإمامة:

يقول أبو الحسن الأشعري : اختلف الناس بعد نبيهم - ص - في أشياء كثيرة ضلل فيها بعضهم بعضا فصاروا متباينين وأحزابا متشتتين إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم، وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد وفاة نبيهم اختلافهم في الإمامة. فكان اجتماع السقيفة الذي أسفر عن مبايعة أبي بكر خليفة، كان بعض كبار الصحابة يؤثرون عليا ولكنهم أثروا عدم الخلاف، ثم عين أبو بكر عمرا خليفة من بعده في وقت كانت جيوس المسلمين تواجه الأعداء الموقف بالاختلاف، ثم جعل عمر الشورى في ستة، فقلد عبد الرحمن بن عوف أحد السنة وهو عثمان الخلافة، واستفحل استياء أنصار علي بعد الأحداث التي أحدثها عثمان والفتن التي استيقظت في عهده، وكان مقتل عثمان نذيرا باندلاع الفتنة الكبرى والحرب الأهلية بين المسلمين، ولم يستقر الأمر لعلي وإنما نافسه طلحة والزبير فضلا عثمان، ولم يهنا علي بانتصاره في واقعتي الجمل وصفين، إذ لزم عن التحكيم عن معاوية المطالب بدم عثمان أن خرج عليه بعض شيعته.

وبظهور الخوارج يبدأ الفكر السياسي في الإسلام إذ لم يكن خلافهم على علي طمعا في أن يكون أحدهم خليفة كما هي الحال بالنسبة للطامعين فيها أمثال طلحة والزبير ومعاوية وإنما كان اختلافهم حول المبادىء. فلقد أثاروا لأول مرة في الفكر الإسلامي مشكلات سياسية مثل وجوب الإمامة، ومدى أحقية قريش باستئثار الخلافة. وحين نقموا على تحكيم الرجال وأعلنوا صيحتهم « لا حكم إلا الله » رد علي كلمة حق أريد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا الله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، وأصبح القول بوجوب وجود الإمام من أول المباحث في كتب السياسة الإسلامية أو بالأحرى الإمامة، كان خلافهم حول مبادىء وهكذا تنشأ الفرق.

ثم كانت كارثة كربلاء والسيف الذي جز رقبة الحسين بن علي سبط حز معه وحدة المسلمين إلى اليوم، إذ لا زال أكبر انشقاق مذهبي بين سنة وشيعة، ذلك أن الأحداث السياسية قد تصاعدت والخطوب قد تفاقمت منذ وفاة النبي إلى مقتل الحسين على نحو كان لا بد أن تقصم معه وحدة المسلمين فكان أن تشكلت للشيعة عقائد في الإمامة مباينة لاتجاهات أهل السنة، وهكذا أصبح البحث في الإمامة - الإسم الذي أطلقه مفكرو الإسلام على السياسة الدينية - محور الخلاف بين السنة والشيعة والخوارج.

٢ - الحكم على فاعل الكبيرة:

ولم تكن مشكلة الإمامة هي وحدها التي أثارها الخوارج على مستوى بدلا الأشخاص وإنما أثاروا موضوعا آخر يتصل بالحكم على فاعل الكبيرة، كان الخوارج مناوئين للدولة الأموية، وكان لا بد أن يبرروا خروجهم وحربهم على أساس عقائدي ولما كان الخلفاء الأمويون غير جديرين من ناحية الأفضلية الدينية أن يكونوا للمؤمنين أمراء فضلا عن أنهم قد وصلوا إلى السلطة بالغصب والإكراه بل لم يتورع بعضهم عن ارتكاب الكبائر من سفك الدماء واغتصاب الأموال فقد أعلن الخوارج تكفير فاعل الكبيرة - حتى يحل لهم بذلك ،حربه، فكان أن ذهب فريق المسلمين أقلقه سفك الدماء بين المسلمين والحروب المتصلة وتملكه اليأس من التخلص من الدولة

الأموية، رأى هذا الفريق وهم المرجئة - لأنهم يطلبون إرجاء الحكم على فاعل الكبيرة إلى يوم القيامة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.
وهذه المشكلة قد ظهرت في البيئة الإسلامية قبل أن تعرف آراء يوحنا الدمشقي بعشرين عاما، إذ ظهرت في أوائل حكم الأمويين - قبل عام ٨٠ هـ - بينما مات يوحنا الدمشقي عام ١٢٣ هـ، وظهور القدريين الأوائل في الشام ليس دليلا كافيا على الالتقاء أو الاقتباس عنه، وإنما هو اتهام الصقه الأمويون ومشايعوهم من العلماء المروجين للجبر بمن عارضهم فضلا عن أن القول بالقدر ليس من أصول الدين المسيحي، ولم يكن القدريون الأوائل أمثال غيلان الدمشقي بحاجة إلى أن يتتلمذوا على يوحنا الدمشقي كي يعلموا أن الإنسان حر مختار.
ويشير رأي آخر إلى أن الخلاف بين القدرية والمجبرة في الإسلام إنما يرجع إلى النظر المجرد في آيات القرآن الكريم حيث آيات ظاهرها الجبر يستند إليها المجبرة وأخرى تفيد الاختيار يستند إليها القدرية، أن هذا الرأي يبدو منطقيا إلا أنه من الملاحظ بالنسبة لمعظم الفرق الكلامية أن آراءهم لم تكن نتيجة تمعن موضوعي في آيات الكتاب بل الأفكار المسبقه هي التي تحكم استنادهم إلى الآيات فيتخير المتكلم ما يوافق رأيه ويؤول ما يخالفه، فالجهم ابن صفوان كان مجبرا أولا ثم التمس من الآيات ما يؤيد موقفه وقام بتأويل ما يعارضه من آيات وكان معبد الجهني قدريا ثم استشهد بايات تفيد حرية إرادة الإنسان.

٣- ويمكن اعتبار الآيات القرانية المتشابهة من الأسباب الداخلية التي ادت الى نشأة علم الكلام فقد وردت آيات محكمة وأخرى متشابهة تحتمل أكثر من تفسير كآيات الصفات وآيات الهدى الضلال وغيرها ، ورغم تسليم المسلمون لنزولها والاعتقاد بها فإنهم اختلفوا في تفسيرها وفهم المراد منها ، مما أدى الى تشعب الآرء واختلاف وجهات النظر، الأمر الذي أستتبع ظهور المذاهب الكلامية المختلفة. وسيأتي عند بيان آراء المتكلمين والمدارس الكلامية في بعض ابحاث الصفات الإلهية وغيرها الاشارة الى نماذج من ذلك العامل.